214875 ـ مفاوضات تيمورلنك مع ابن مفلح الحنبلي الابن ، وليس الأب صاحب ابن تيمية

السؤال

أنا طالب علم من العراق ، أدرس الفقه الحنبلي ، حدثني أحدهم أنه قرأ أن ابن مفلح الحنبلي ـ رحمه الله ـ اصطف مع تيمورلنك في غزو التتار لبلاد الشام . فهل هذا صحيح ؟ وأنا بصراحة صارت عندي صدمة ، فما القصة ، وهل أثَّر هذا على ابن مفلح من ناحية علمه ؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

حادثة سقوط دمشق في يد القائد المغولي (تيمورلنك) من آسف الحوادث التاريخية ؛ لما وقع فيها من قتل وتدمير ونهب لإحدى أعظم عواصم الأمة الإسلامية (دمشق) ، وقد وقع ذلك سنة (803هـ) ، حتى قال المقريزي رحمه الله (ت845هـ) : " وطرق بلاد الشام فيها الأمير تيمورلنك ، فخرّبها كلها وحرّقها ، وعمها بالقتل والنهب والأسر ، حتى فُقد منها جميع أنواع الحيوانات ، وتمزق أهلها في جميع أقطار الأرض ، ثم دهمها بعد رحيله عنها جراد لم يترك بها خضراء ، فاشتدّ بها الغلاء على من تراجع إليها من أهلها ، وشنع موتهم ، واستمرّت بها مع ذلك الفتن " انتهى من " المواعظ والاعتبار " (3/421) .
وقد كان لاسم ابن مفلح حضور ظاهر في قصة سقوط (دمشق) ، ولكن ليس هو شمس الدين محمد بن مفلح الفقيه الحنبلي المعروف تلميذ ابن تيمية ، وصاحب الكتب المعتمدة في المذهب ككتاب " الفروع "، وكتاب " الآداب الشرعية "، وغيرها ، فهذا قد توفي قبل المحنة أصلا ، توفي سنة (763هـ)، ولم يدرك تيمورلنك ولا سقوط دمشق ، ينظر ترجمته في " أعيان العصر " للصفدي (5/269) .
بل المقصود هو ابنه قاضي القضاة ، تقي الدين ، إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي (751 – 803هـ)، جاء في ترجمته في " المنهل الصافي " (1/165) ليوسف بن تغري بردي (ت874هـ) : " كان إماما فقيها عالما فاضلا دينا ، ولي قضاة دمشق ، وحمدت سيرته إلى أن امتحن في واقعة تيمورلنك ، ومات في شعبان سنة ثلاث وثمانمائة " انتهى .
ومن يطالع تلك المحنة التي تولى أمرها إبراهيم بن محمد بن مفلح ، أدرك ما في حوادث التاريخ من عظة وعبرة ، من جهة الخيانة التي تعرضت لها دمشق بسبب رجوع العسكر المصري إلى القاهرة قبل اقتحام تيمورلنك لدمشق ، بدعوى الخوف من

حدوث انقلاب هناك ، وفيها عظة عظيمة في مقدار الخديعة العظيمة التي تعرض لها قاضي القضاة تقي الدين ابن مفلح ، فقد اطمأن طمأنينة بالغة لتيمورلنك وعهده بالسلم في دخول المدينة ، وقد كان الأولى أن يستفاد الدرس من سيرة ذلك الجبار الذي ما زالت آثار كارثته في مدينة حلب لم تجف بعد ، فلم يكن من المعقول أن يطمئن أهل دمشق إلى وعده وعهده ، ولكننا في الوقت نفسه نلتمس لقاضي القضاة العذر ، فنحن إنما نقدر الظرف بقدر ما اطلعنا من أخبار في كتب التاريخ ، وهي لا تنقل كل شيء ، وقد كانت المخاوف العظيمة على المدينة هي الدافع الأول لإبراهيم بن مفلح للقبول بذلك الصلح والعهد ، وليس التواطؤ مع تيمورلنك ، ولا الخيانة لأمته ودينه ، فرجا أن يكف الله بأس الطاغية بالصلح والسلم ولو على مال ، كما صالح النبي صلى الله عليه وسلم كفار قريش في الحديبية ، ولكن لم يكن اجتهاده صوابا ، نسأل الله تعالى أن يعفو عنا وعنه ، وأن يرحم جميع من قضى في تلك الواقعة ، وفي غيرها من الكوارث التي تعرضت لها الأمة على يد أعدائها .

ونحن ننقل هنا ما حصل في تلك السنة ، من كتاب " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " (12/ 238-246) لأبي المحاسن يوسف بن تغري بردي ، فقد كان قريب العهد من تلك الواقعة ، وتحدث عنها في كتابه هذا بالتفصيل ، فقال رحمه الله :

" لمّا أصبحوا يوم الجمعة وقد فقدوا السلطان والأمراء والنائب غلّقوا أبواب دمشق ، وركبوا أسوار البلد ، ونادوا بالجهاد ، فتهيّأ أهل دمشق للقتال ، وزحف عليهم تيمور بعساكره ، فقاتله الدمشقيون من أعلى السور أشدّ قتال ، وردّوهم عن السور والخندق ، وأسروا منهم جماعة ممن كان اقتحم باب دمشق ، وأخذوا من خيولهم عدّة كبيرة ، وقتلوا منهم نحو الألف ، وأدخلوا رؤوسهم إلى المدينة ، وصار أمرهم في زيادة ، فأعيا تيمور أمرهم ، وعلم أن الأمر يطول عليه ، فأخذ في مخادعتهم ، وعمل الحيلة في أخذ دمشق منهم .

وبينما أهل دمشق في أشدّ ما يكون من القتال والاجتهاد في تحصين بلدهم ، قدم عليهم رجلان من أصحاب تيمور من تحت السور ، وصاحا من بعد : الأمير يريد الصلح ، فابعثوا رجلا عاقلا حتى يحدّثه الأمير في ذلك .

قلت: هذا الذي كان أشار إليه الوالد عند استقراره بغزّة في نيابة دمشق ، وقوله : إن أهل دمشق عندهم قوّة لدفع تيمور عن دمشق ، وأن دمشق بلد كثيرة الميرة والرّزق ، وهي في الغاية من التحصين ، وأنه يتوجّه إليها ويقاتل بها تيمور ، فلم يسمع له أحد في ذلك ، فلعمري لو رأى من لا أعجبه كلام الوالد قتال أهل دمشق الآن ، وشدّة بأسهم ، وهم بغير نائب ، ولا مدبّر لأمرهم ، فكيف ذاك لو كان عندهم متولي أمرهم بمماليكه ، وأمراء دمشق وعساكرها ، بمن انضاف إليهم ، لكان يحق له الندم والاعتراف بالتقصير . انتهى .

ولما سمع أهل دمشق كلام أصحاب تيمور في الصلح وقع اختيارهم في إرسال قاضى القضاة تقي الدّين إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي ، فأرخي من سور دمشق إلى الأرض ، وتوجّه إلى تيمور ، واجتمع به ، وعاد إلى دمشق ، وقد خدعه تيمور بتنميق كلامه ، وتلطّف معه في القول ، وترفق له في الكلام ، وقال له : هذه بلدة الأنبياء والصحابة ، وقد أعتقتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة عنّي وعن أولادي ، ولولا حنقي من (سودون) نائب دمشق عند قتله لرسولي ما أتيتها ، وقد صار



(سودون) المذكور في قبضتي وفي أسري ، وقد كان الغرض في مجيئي إلى هنا ، ولم يبق لي الآن غرض إلا العود ، ولكن لا بدّ من أخذ عادتي من التّقدمة من الطّقزات .

وكانت هذه عادته إذا أخذ مدينة صلحا يخرج إليه أهلها من كل نوع من أنواع المأكول والمشروب والدوابّ والملابس والتّحف تسعة ؛ يسمّون ذلك طقزات ، والطّقز باللّغة التركيّة : تسعة ، وهذه عادة ملوك التتار إلى يومنا هذا .

فلما صار ابن مفلح بدمشق شرع يخذّل الناس عن القتال ، ويثني على تيمور ودينه وحسن اعتقاده ثناء عظيما ، ويكفّ أهل دمشق عن قتاله ، فمال معه طائفة من الناس ، وخالفه طائفة أخرى ، وأبوا إلّا قتاله ، وباتوا ليلة السبت على ذلك ، وأصبحوا نهار السّبت وقد غلب رأى ابن مفلح على من خالفه ، وعزم على إتمام الصلح ، ونادى في الناس : إنه من خالف ذلك قتل وهدر دمه ؛ فكفّ الناس عن القتال .

وفى الحال قدم رسول تيمور إلى مدينة دمشق في طلب الطقزات المذكورة ، فبادر ابن مفلح ، واستدعى من القضاة والفقهاء والأعيان والتجار ، حمل ذلك كلّ أحد بحسب حاله ، فشرعوا في ذلك حتى كمل ، وساروا به إلى باب النصر ليخرجوا به إلى تيمور ، فمنعهم نائب قلعة دمشق من ذلك ، وهدّدهم بحريق المدينة عليهم إن فعلوا ذلك ، فلم يلتفتوا إلى قوله ، وقالوا له : أنت احكم على قلعتك ، ونحن نحكم على بلدنا ، وتركوا باب النصر وتوجهوا ، وأخرجوا الطقزات المذكورة من السور ، وتدلّى ابن مفلح من السور أيضا ومعه كثير من أعيان دمشق وغيرهم وساروا إلى مخيّم تيمور ، وباتوا به ليلة الأحد ، وعادوا بكرة الأحد ، وقد استقرّ تيمور بجماعة منهم في عدّة وظائف : ما بين قضاة القضاة ، والوزير ، ومستخرج الأموال ، ونحو ذلك ، معهم فرمان من تيمور لهم ، وهو ورقة فيها تسعة أسطر يتضمّن أمان أهل دمشق على أنفسهم وأهليهم خاصّة ؛ فقرئ الفرمان المذكور على منبر جامع بني أمية بدمشق ، وفتح من أبواب دمشق باب الصغير فقط ، وقدم أمير من أمراء تيمور ، جلس فيه ليحفظ البلد ممّن يعبر إليها من عساكر تيمور ، فمشى ذلك على الشاميّين وفرحوا به . وأكثر ابن مفلح ومن كان توجّه معه من أعيان دمشق الثّناء على تيمور وبثّ محاسنه وفضائله ، ودعا العامّة لطاعته وموالاته ، وحثّهم بأسرهم على جمع المال الّذي تقرّر لتيمور عليهم ، وهو ألف ألف دينار ، وفرض ذلك على الناس كلّهم ، فقاموا به من غير مشقّة لكثرة أموالهم ، فلمّا كمل المال حمله ابن مفلح إلى تيمور ووضعه بين يديه ، فلمّا عاينه غضب غضبا شديدا ، ولم يرض به ، وأمر ابن مفلح ومن معه أن يخرجوا عنه ، فأخرجوا من وجهه ، ووكّل بهم جماعة حتى التزموا بحمل ألف تومان ، والتومان عبارة عن عشرة آلاف دينار من الذّهب ، إلّا أنّ سعر الذهب عندهم يختلف ، وعلى كلّ حال فيكون جملة ذلك عشرة آلاف ألف دينار ، فالتزموا بها ، وعادوا إلى البلد ، وفرضوها ثانيا على الناس كلّها عن أجرة أملاكهم ثلاثة أشهر ، وألزموا كلّ إنسان من ذكر وأنثى حرّ وعبد بعشرة دراهم ، وألزم مباشر كلّ وقف بحمل مال له جرم ، فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانيا بلاء عظيم ، وعوقب كثير منهم بالضّرب ، فغلت الأسعار ، وعزّ وجود الأقوات ، وبلغ المدّ القمح ــ وهو أربعة أقداح ــ إلى أربعين درهما فضّة ، وتعطّلت صلاة الجمعة من دمشق ، فلم تقم بها جمعة إلّا مرتين ، حتى دعي بها على منابر دمشق للسلطان محمود ، ولولي عهده ابن الأمير تيمورلنك ، وكان السلطان محمود مع تيمور آلة ، كون عادتهم لا يتسلطن عليهم إلّا من يكون من ذرّية الملوك

. انتهى.

ثم قدم (شاه ملك) أحد أمراء تيمور إلى مدينة دمشق على أنه نائبها من قبل تيمور .

ثمّ بعد جمعتين منعوا من إقامة الجمعة بدمشق لكثرة غلبة أصحاب تيمور بدمشق ، كلّ ذلك ونائب القلعة ممتنع بقلعة دمشق ، وأعوان تيمور تحاصره أشدّ حصار ، حتى سلّمها بعد تسعة وعشرين يوما ، وقد رمى عليها بمدافع ومكاحل لا تدخل تحت حصر ، يكفيك أن التمريّة من عظم ما أعياهم أمر قلعة دمشق بنوا تجاه القلعة قلعة من خشب ، فعند فراغهم من بنائها وأرادوا طلوعها ليقاتلوا من أعلاها من هو بالقلعة ، رمى أهل قلعة دمشق نفطا فأحرقوها عن آخرها ، فأنشئوا قلعة ثانية أعظم من الأولى وطلعوا عليها وقاتلوا أهل القلعة .

هذا وليس بالقلعة المذكورة من المقاتلة إلّا نفر يسير دون الأربعين نفرا ، وطال عليهم الأمر ، ويئسوا من النّجدة ، وطلبوا الأمان ، وسلّموها بالأمان .

قلت : لا شلّت يداهم ! هؤلاء هم الرجال الشجعان . رحمهم الله تعالى .

ولما تكامل حصول المال الذي هو ألف تومان، أخذه ابن مفلح وحمله إلى تيمور؛ فقال تيمور لابن مفلح وأصحابه: هذا المال بحسابنا إنما هو يسوى ثلاثة آلاف ألف دينار ، وقد بقي عليكم سبعة آلاف ألف دينار ، وظهر لي أنكم عجزتم .

وكان تيمور لما اتفق أوّلا مع ابن مفلح على ألف ألف دينار يكون ذلك على أهل دمشق خاصة ، والذي تركته العساكر المصرية من السلاح والأموال يكون لتيمور ، فخرج إليه ابن مفلح بأموال أهل مصر جميعها ، فلما صارت كلها إليه ، وعلم أنه استولى على أموال المصريين ألزمهم بإخراج أموال الذين فرّوا من دمشق ، فسارعوا أيضا إلى حمل ذلك كله ، وتدافعوا عنده حتى خلص المال جميعه ، فلما كمل ذلك ألزمهم أن يخرجوا إليه جميع ما في البلد من السلاح جليلها وحقيرها ، فتتبّعوا ذلك ، وأخرجوه له حتى لم يبق بها من السلاح شيء ، فلمّا فرغ ذلك كلّه قبض على ابن مفلح ورفقته ، وألزمهم أن يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها ، فكتبوا ذلك ودفعوه إليه ، ففرّقه على أمرائه ، وقسم البلد بينهم ، فساروا إليها بمماليكهم وحواشيهم ، ونزل كلّ أمير في قسمه ، وطلب من فيه ، وطالبهم بالأموال ، فحينئذ حلّ بأهل دمشق من البلاء ما لا يوصف ... واستمرّ هذا البلاء والعذاب بأهل دمشق تسعة عشر يوما ، آخرها يوم الثلاثاء ثامن عشرين شهر رجب من سنة ثلاث وثمانمائة ، فهلك في هذه المدّة بدمشق بالعقوبة والجوع خلق لا يعلم عددهم إلّا الله تعالى " انتهى.

والله أعلم .